كان، صلى الله عليه وسلم، حريصًا على أن تتم هذه البيعة فى سر، وألا تتسرب أنباؤها إلى قريش؛ فواعد أصحابه من الأنصار «شِعْبَ العَقَبة»، فى ليلة اليوم الثانى من أيام التشريق، وأوحى إليهم أن يكتموا هذا الأمر على من معهم من المشركين، وأن يأتوا إليه متفرقين إذا مضى ثلث الليل الأول، لا ينتظرون غائبًا ولا يوقظون نائماً. وفى الليلة الموعودة، أوحى رسول الله ﷺ إلى أبى بكر أن يقف على فَمِ الشعب من ناحية، وإلى على ابن أبى طالب أن يقف فى فمه من الناحية الأخرى. ثم جاء ومعه عمه العباس، ليأخذ البيعة له ولأصحابه على هؤلاء الأنصار المتحمسين.

البيعة الكبرى

ويحدثنا كعب بن مالك، رضى الله عنه، كيف تمت هذه البيعة فيقول: «خرجنا مع حجاج قومنا من المشركين، وقد صلينا وفَقَهنا، ومعنا البَرَاء بن مَعْرور سيدُنا وكبيرنا. حتى قدمنا مكة. فخرجنا نسأل عن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وكنا لا نعرفه ولم نره قبل ذلك. فلقينا رجلا من أهل مكة، فسألناه عن رسول الله، صلى الله عليه وسلم. قال: هل تعرفانه؟ فقلنا: لا. فقال: هل تعرفان العباس ابن عبد المطلب عمه؟ قلنا: نعم - وقد كنا نعرف العباس،